المنظومة الاتصالية في مرحلة الدعوة المحمدية

أسس الفضاء العمومي الاتصالي الإسلامي

فلة بن غربية*

عرفت المنظومة الاتصالية في المجتمع العربي الإسلامي عدة مراحل تميزت بتطورات عديدة من حيث الشكل والتشكل، والوسائل والأهداف وأيضا من حيث الفاعلين والمؤثرين في سجل سيرورتها التاريخية بكل متغيراتها ومكوناتها: من مرسل، متلقي، وسيلة ورسالة. وكذا السياق السياسي – الاجتماعي – التاريخي المتموضعة فيه.

لقد أثرت المراحل الأولى لتبلور هذه المنظومة الاتصالية في جميع المراحل التاريخية الأخرى اللاحقة، فاعتبرت مرجعية نظرية وإمبريقية لأنها تعد مراحل تأسيسية ومؤسساتية قاعدية ذات معايير قيمية، أخلاقية ودينية بالدرجة الأولى.

في هذه الورقة، سنهتم بالمنظومة الاتصالية أثناء المرحلة المحمدية لما لها من خصائص مميزة في طبيعتها وأهدافها وإستراتيجيتها المبنية والمهيكلة من طرف الرسول صلى الله عليه وسلم، الذي أرسى قواعد هذه المنظومة ابتداء من اللحظة المفصلية التي أنزل فيها القرآن الكريم عليه ليبشر برسالة جديدة... لحظة فاصلة بين الماضي- الحاضر والمستقبل، وهي بداية التأسيس للمنظومة الاتصالية العربية الإسلامية.

وبالفعل، سنتناول فيما سيأتي أهم الركائز والمكونات والمتغيرات الجوهرية التي بُنِيَت عليها المنظومة الاتصالية في مرحلة الدعوة المحمدية باعتبارها منظومة اتصالية مرجعية، كون الرسول صلى الله عليه وسلم عكف على إقامتها بمنهجية وآليات وعلاقات عقلانية وإدراكية مستوحاة من القرآن الكريم ومن سُنَّته الحميدة.

1. التنزيل : فضاء عمومي رباني روحي اتصالي.

لقد نزل الوحي على سيد الخلق أجمعين في الفضاء المكي، الذي كان ذا أهمية ديناميكية لقريش، فضاء مكي نشأ وترعرع فيه الرسول محبا للمكان المقدس الذي دعا سيدنا إبراهيم ربه أن يجعله مكانا آمنا. فضاء مكاني دون الفضاءات المكانية الجغرافية الأخرى لاعتبارات دينية شعائرية... فنزل عليه الوحي وهو في الأربعينات من عمره (مرحلة نضج عقلي وعاطفي) لوحده في مكان معزول، متصلا مع ربه بواسطة سيدنا جبريل عليه السلام، إذ قال له عز وجل أول ما قال له في سورة العلق، الآية واحد: " إقْرَأ بِاسْم رَبك الذي خلق"، ومخاطبته وأمره بالقراءة والتعرف على الخالق بديع هذا الكون وما يحتويه...

* أستاذة محاضرة، قسم علوم الاتصال، كلية العلوم الإنسانية، جامعة وهران.

ولكي يعلم الآخرون أنه الله لا إله إلا هو وحده لا شريك له وأن محمدا رسوله الأمين خاتم الأنبياء والرسل، جاء ليقضي عما سلف بتأسيس وإقامة دين جديد بمنهج وقواعد ربانية (لا جدال ولا نقاش فيها). هو الدين الإسلامي دين أبينا سيدنا إبراهيم.

نزل عليه الوحي بكلمات عربية فصيحة، لا مثيل لها في شكل آيات بيِّنات هي القرآن العظيم، كتاب الله المنزل الذي نعتبره فضاء معنويا روحيا لغويا، بجمل وكلمات ومفردات ومفاهيم ذات معان وتفسيرات وأهداف غير محدودة في الزمان والمكان. رسالة معنوية لغوية "شفوية" أصبحت فيما بعد، لغة مكتوبة جسدها وطبقها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في الواقع المعاش " le vécu " بطريقة عقلانية، أخلاقية، تهذيبية إقناعية، كونه شخصية قوية الإيمان والصبر، قوية المخاطبة والمحاججة والاستدلال، وبذلك قوية التأثير وإقناع العقول والنفوس.

فكانت مهمته كنبي وكرسول صلى الله عليه وأله وسلم، تأدية هذه الرسالة الربانية بإعلائها وإبلاغها ونشرها بين أفراد جماعته الأولية: الأصحاب، أهل مكة * أفراد المجتمع العربي وبعدها إلى باقي المجتمعات الأخرى باختلاف دياناتها وأعراقها وألسنتها.

بهذا، فإن التنزيل منظومة اتصالية بمكوناتها و أهدافها القوية:

– فالمرسل: هو الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير.

– المتلقي: هو سيد الخلق محمد عليه أزكى الصلاة والسلام.

– الرسالة: هي الآيات والسور القرآنية التي تلقاها محمد من ربه مُجْمَلة ومختومة ومكتوبة في كتاب الله بـــ 114 سورة منها: 86 سورة مكية و28 سورة مدنية.

– أما الوسيلة: فهي الوحي الأمين، سيدنا جبريل عليه السلام، الواسطة بين المرسل والمتلقي، بالإضافة إلى أن لغة المتكلم والمتحدث به وسيلة نقل مفهومة من طرف المتلقي.

– رجع الصدى: تمثل في تقبل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كلام الله والاقتناع والتشبث والإقتداء به. وبذلك تطبيقه في الحياة اليومية، ثم نشره وتبليغه إلى عامة الناس، قائلا في خطبة الوداع: ''اللهم هل بلغت'' فذكر أن الناس قالوا: "اللهم نعم"، فقال رسول الله: "اللهم أشهد".(1)

من الملاحظ أن المنظومة الاتصالية المبنية على التغيرات المذكورة، كانت تعتمد أساسا على التنزيل. عملية اتصالية عمودية تنازلية من الأعلى إلى الأسفل، من رب العالمين إلى سيدنا محمد (بشر ليس مثل البشر). فالتنزيل في هذه المرحلة هو أساس الفضاء الاتصالي باعتباره رسالة ذات أهداف، معاني محتويات إرشادية، نصائح وموعظة دينية ودنيوية .

* في كيفية الاتصال بالإله عن طريق التوحيد (الصلاة، الزكاة، الصيام، الحج...)

* في كيفية إتباع ما جاء في هذه الرسالة للعتق من النار وتجنب غضب الله وعذابه.

* في كيفية بناء العلاقات مع الأقربين والآخرين باختلاف طبيعتهم وتركيباتهم الاجتماعية العامة مثل (عدم الاعتداء، التسامح، الإخاء، العفو عند المقدرة، المساعدة، الرحمة وصلة الرحم...).

إنه تخطيط وهندسة للحياة العامة للفرد والجماعة. فمن اتبعه فلح ومن أعرض عنه فلن تجد له وليا مرشدا. لذلك فهو ليس مشروع مجتمع فحسب، بل هو مشروع ديني، دنيوي. مشروع مجتمعات، مشروع العيش والتعايش العالمي في كل الأزمنة والأمكنة...

هو فضاء عمومي معنوي، انبثقت منه فضاءات معنوية أخرى .

أ – فضاءات العبادات للتقرب من الله والدعاء له.
ب – فضاءات المعاملات والتفاعل مع الآخرين المتبعين للدين نفسه.
ج – فضاءات التعامل والتعايش مع ديانات وأعراق وأقوام وألسنة أخرى مثلا المسيحية واليهودية (أهل الكتاب).

وقد شَكَّل نزول الوحي على سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فضاء خاصا بوضعية خاصة جدا، ونقصد بذلك أن الوحي نزل على فرد واحد مشخص في النبي الذي بعث رحمة وشفاعة للناس أجمعين. إلا أن القرآن لم يكن موجها فقط لمحمد بل كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، في نفس الوقت، المتلقي والوسيلة والحامل والحافظ والمرسل والناشر له بالحجة والبرهان المتين....

فأصبح بذلك التنزيل فضاء عموميا عاما موجها للجميع، بحيث انتقلت المنظومة الاتصالية من الخاص إلى العام. وكان الفضاء الخاص في هذه المرحلة القاطرة الناقلة والمسيرة والمبلغة للفضاء العمومي الذي اتخذ صفة العمومية عندما بدأت الدعوة المحمدية مرحلة العلانية، ثم العالمية بالكتابة إلى ملوك ذلك الوقت مثل كسرى ملك الفرس، وهرقل إمبراطور الروم والنجاشي ملك الحبشة يدعوهم الرسول إلى دين الله.

لما بدأ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في نشر الدين الإسلامي وتبليغه للناس، انتقلت المنظومة الاتصالية القرآنية من فرد إلى فرد آخر، ثم إلى جماعة. أي من الرسول كمتلقي لتلك الرسالة الربانية إلى الرسول كمرسل ومفسر ومبشر لتلك الرسالة. يتبع في ذلك منهجا بأدوات ومتغيرات وآليات مأخوذة من القرآن، ومعتمدا على شخصيته الفريدة من نوعها "فهو بشر" لا مثيل له من البشر، وصف بوصف لم يوصف به ومن بعده الرجال"، لما تميز به من خصال حميدة وأخلاق كريمة وسامية، استطاع بقوة القرآن والإيمان والتوحيد أن يقضي على موازين القوى القديمة واستبدالها بقوى جديدة مستوحاة ومستقاة من التنزيل. فبدأ الأفراد يستقبلون، ويتلقون، وينتبهون ويستوعبون ما يقدم ويشرح عليه الصلاة والسلام من آيات كريمة.

بهذا، تحولت وانتقلت العملية الاتصالية من الاتصال العمودي (من الله إلى سيدنا محمد) إلى الاتصال الأفقي (من فرد إلى جماعة)

فأصبح:
– المرسل: هو الرسول صلوات الله عليه وسلامه.
– الرسالة: هي القرآن الكريم ، تفسيراته، أهدافه ومعانيه
– الوسيلة: هي اللغة المنطوقة التي انتقلت إلى المكتوبة أي تدوين القرآن للحفظ والتداول بين الناس لعدم التحريف والتزييف.
– المتلقي: بداية بالأقربين والأصحاب ثم أهل مكة ... فالناس أجمعين.

من الملاحظ أن الرسالة النبوية قد جاءت في زمن ومجتمع مُعَيَّنين، مليئين بالتناقضات، (آليات الجاهلية من جهة وآليات الإسلام من جهة أخرى) وما فترة محمد صلى الله عليه وسلم إلا حقبة تكوينية أساسية، قاعدية، ركائزية، منطلقاتها الفضاء الإسلامي العربي، تلتها حقبات بنيوية (دينية، سياسية، اجتماعية، قاعدية، قيمية، أخلاقية...أخرى) للهيكل العام والعمومي للمجتمع العربي الإسلامي، وللهيكل الخاص للفرد العربي (في كيفية تبنيه للدين الإسلامي وكيفية ممارسته مع الآخرين خاصة عندما يتعلق الأمر بالفاعلين مثل أهل الحل والعقد، والأمراء والقادة السياسيين، السلاطين، الأئمة، الشيوخ، الدعاة...).

– هدف المرسل: وكان هدف المرسل في هذه العملية الاتصالية هو إيصال ونشر الرسالة الربانية وتبليغها للناس، ليتبنوا ويتقبلوا عن اقتناع هذا الدين الجديد كفكرة قيمية وقاعدة دينية جديدة بالنسبة إليهم وبذلك يتخذون من الإسلام الدين الوحيد.

فكان رجع الصدى على وجهتين مختلفتين :

- من رفض تبنى الدين الجديد، رفضا تاما خاصة في بداياته الأولى.
- ومن تقبله، تبناه ورحب به، فأعتنقه على أساس أنه دين الله الحنيف.

فَتَكوَّن بذلك فضاءان عموميان، يناقشان، يجادلان ويتحاوران فيما بينهما حول ما جاء به "دين محمد" صلى الله عليه وسلم... وفي كثير من الأحيان متنافران متعاديان... مما أدى إلى نشوب خلافات ونزاعات بينهما والدليل على ذلك الغزوات التي خاضها النبي وأصحابه ضد الكفار أعداء الإسلام مثل بدر، أحد، الخندق أو المعارك والحروب التي شُنَّت إبان الفتوحات الإسلامية. فضاءان تطورا بأشكال مختلفة ومحتويات أفرزتها الظروف والأشخاص (الفاعلون) وكذا المتغيرات والمفاهيم التي تطبع أو طبعت فترة عن أخرى .

و نوضح المنظومة الاتصالية في المرحلة المحمدية كما يلي :

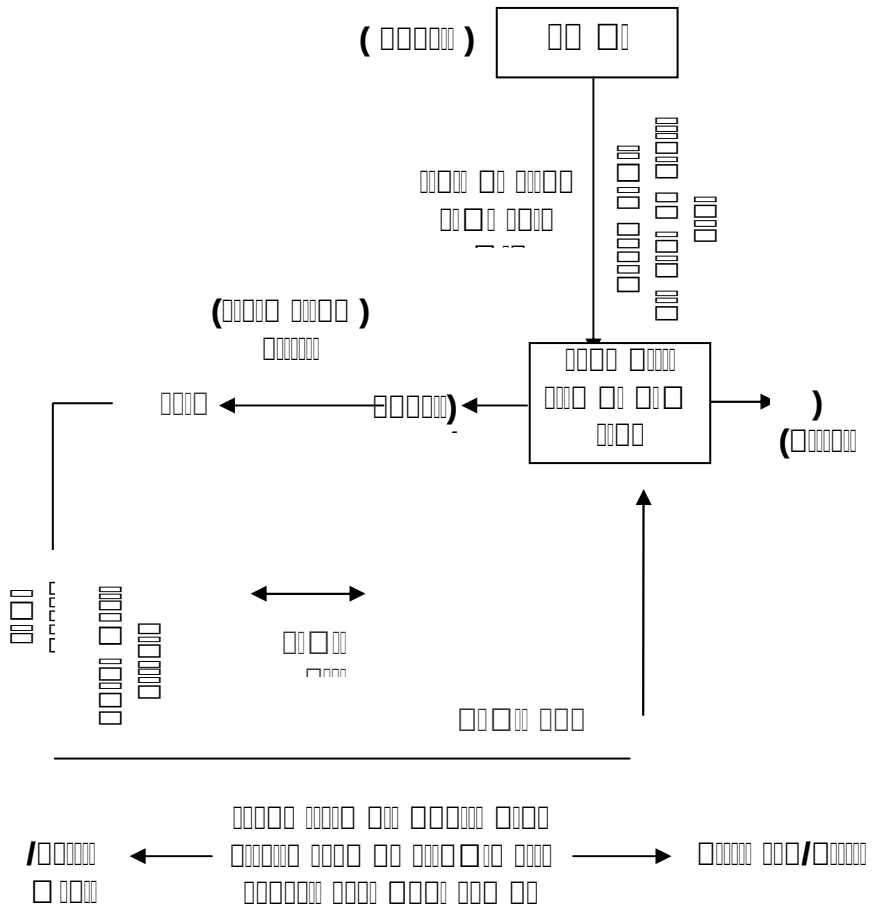

* فيما يخص العملية الاتصالية للتنزيل.

من هذا نلاحظ أن:

– الفضاء العمومي الاتصالي الديني أساسه وقاعدته ومنهجه التنزيل القرآني الذي يُعْتبر منظومة اتصالية كاملة ربانية بحيث قال عنه أبو طالب: "جعله اللهِ ريًّا لعطش العلماء، وربيعا لقلوب الفقهاء، ومحاجا لطرق الصلحاء، وبرهانا لمن تكلم به وشاهدا لمن خاصم به وفلجا لمن حاج به، وعلما لمن وعى، وحديثا لمن روى و حكما لمن قضى "(2).

– فضاء روحي باعتباره وحيا إلهيا، مكاني بما أنه نزل بمكة المكرمة، توقيتي لاختيار عمر الرسول كمتغير لزمن وفترة بداية نزول الوحي وفضاء خاص باعتبار نزول الوحي على سيدنا محمد لوحده بوضعية روحية خاصة جدا، فالمتلقي لهذا الوحي فضاء خاص.

– استعمل الفضاء التنزيلي اللغة العربية كحامل وناقل لمعانيه ومفاهيمه ومفرداته للمخاطبة والاستقبال. بذلك فهو فضاء معنوي لغوي غير ملموس... والذي أصبح فيما بعد رسالة مكتوبة في شكل كتاب حافظ عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وأتباعه.

– إن التنزيل منظومة اتصالية لاحتوائها على متغيرات العملية الاتصالية من مرسل ـــ متلقى ـــ رسالة ـــ وسيلة ـــ هدف ـــ ورجع الصدى.

– انتقال التنزيل من الفضاء الخاص إلى الفضاء العام بالإعلان عن الدعوة للجميع بعدما أن كانت سرية مدة ثلاث سنوات.

– انتقال المنظومة الاتصالية من الاتصال العمودي إلى الاتصال الأفقي.

– إن التنزيل منظومة اتصالية اجتماعية، قيمة، أخلاقية، شاملة لمنهج ومبادئ وقواعد الحياة العامة للناس في كيفية الاتصال والتواصل والعيش والتعايش عن طريق العبادات.

– التنزيل مشروع عالمي كوني، دنيوي وأخروي، شمل المخلوقات الحية منها والجامدة... مشروع غير محدد زمنيا ولا مكانيا، يتماشى مع جميع مراحل تطور الإنسان فوق الأرض.

2. المدينة المنورة فضاء عمومي مؤسساتي.

عندما ضاقت مكة بالرسول صلى الله عليه وسلم، جراء أفعال أهلها تجاهه من شتم وسب وضرب ومحاولات قتله ... اشتكى إلى ربه فأمره أن يهاجر إلى يثرب "المدينة المنورة" فأطاع الرسول ربه، وُحُبُّ مكة * في قلبه لم يفارقه.

خرج الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبه أبو بكر الصديق، رضي الله عنه من مكة في السادس عشر من ربيع الأول لسنة 622 م. وهما مهاجران متوجهان إلى المدينة المنورة... لكي يستطيع الرسول صلى الله عليه وسلم تأدية رسالته العظيمة وتأسيس نظام إسلامي مبني على قواعد دينية، منهجية، ديناميكية ومؤسسات تنظيمية وآليات وأدوات جديدة تتماشى والقيم الإسلامية... التي لم يستطع إقامتها في مكة.

فكانت هذه الهجرة نقطة انطلاق وبداية أساسية لتكوين وتأسيس الدولة العربية الإسلامية، فاعتبرت مرجعية قاعدية تاريخية للتاريخ العربي الإسلامي بعد التاريخ الميلادي (ميلاد المسيح عليه السلام) كما اعتبرت حادثة اتصالية في التاريخ ذات عمق تأثيري في المسلمين لأنها أدت إلى تكوين البنية النسقية الاجتماعية لاستمرارية الدعوة المحمدية.

لقد نشأ الهيكل والتصور الأولي لما سمي فيما بعد بالدولة الإسلامية بالمدينة المنورة في السنة الأولى للهجرة، كفضاء عمومي بمتغيراته وركائزه وفضاءاته العمومية الأخرى المادية وغير المادية، دامت عشر سنوات من إقامة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة المنورة حتى وفاته، أي فترة أو مرحلة النظام الهيكلي الإسلامي الوليد، الذي أرساه الرسول في المدينة المنورة لأن مهمته بعد أن قدم إليها لم تعد تقتصر على تبليغ الوحي والدعوة للدين فحسب، بل أصبح قائد مجتمع عليه تنظيم حياة الجماعة بين أتباعه في علاقاتهم العامة والخاصة. أي إضفاء صبغة التنظيم والتأسيس والتوافق والتعامل للعلاقات الجماعية أو العامة، داخل الأسرة، أول مؤسسة اجتماعية في المسجد، أو في العمل، التجارة، التعايش، أثناء الحرب أو السلم... باتخاذ الأفراد أدوارا ووظائف ومراكز اجتماعية محددة، ينون وينسقون ويتصلون، وينتهجون من خلالها نمطا معيشيا منبثقا من الشريعة الإسلامية السمحاء. فتتبلور أو تتعدل سلوكات الأفراد وفق هذا التنظيم الجديد الذي أحدثه الرسول، معتمدا على ما

أمره الله به، على قوة إيمانه ودينه وعقيدته، وعلى صلابة شخصيته في إتباعه وطاعته بطريقة اتصالية مبنية على المجادلة الحسنة القائمة على الحجة والبرهان الرباني.... وبذلك تَهَنْدس نوع جديد من الاتصال ضمن فضاء "المدينة"... هذا الاتصال الذي أرسى الرسول الكريم قواعده وكيانه ومتغيراته من خلال الإنجازات والأعمال التي قام بها خلال فترة تواجده بها، والتي أوصى بها أصحابه من بعده.

... فكانت الأسس الاجتماعية العامة للتنظيم الاجتماعي الجديد:

أ ــ الدينية والمتمثلة في:

الاعتصام بتعاليم الدين الإسلامي وترسيخها لدى الأفراد بالشرح والتفسير والإقناع، لذلك انتهج النبي صلى الله عليه وسلم منذ بداية دعوته ــ و حتى من قبل ــ منهج الحديث الشريف كفضاء عمومي اتصالي يسهل ويبسط بطريقة توضيحية ما يصعب فهمه من الكتاب، فالحديث الشريف يعتبر المنظومة الاتصالية الثانية بعد المنظومة التنزيلية الاتصالية... لكونها علاقتية أفقية. حديث يوضح بطريقة تأويلية تفسيرية كيفية تطبيق دستور الله.

حديث ينقل لنا صورة عن أفعال، سلوكات، تصرفات، أقوال النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه، أهله ومع المسلمين، وغير المسلمين. حديث يقص ويحمل لنا سيرة النبي المباركة من أعماله، وإنجازاته، حياته، وفاته، أخلاقه، شمائله، دعوته، صبره، جهاده، غزواته، علاقاته مع أزواجه و أبنائه، أصحابه وعشيرته. فهو بذلك وعاء حامل لتفاصيل وافية عن المعتقدات بجوانبها التاريخية الحدثية (حدث) événement والفعلية (فعل) والتوقيتية (الزمان) والمكانية (مكان وقوع الحادثة) لسيرة الرسول... فأضحى بذلك الحديث سنة اقتدى بها الأولون من أصحابه، ومن أتباعه وأتباع أتباعه.

ب ــ الأخلاقية:

وضع الرسول الكريم "نظاما نبويا"، معتمدا على المساواة، المؤاخاة، العدل، التراضي والتضامن بين المسلمين. نظام تبنى فيه العلاقات المختلفة سواء أكانت تجارية ــ اجتماعية ــ ثقافية (الأدب والشعر)، أم منازعات واختلافات معينة، على أسس أخلاقية ترضي جميع الأطراف المشاركة في هذه المعاملات. ففي أول خطبة خطبها عندما وصل إلى المدينة قال للناس: "... فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل، ومن لم يجد فبكلمة طيبة فإن بها أجر الحسنة عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف... "(3) وقال كذلك صلى الله عليه وآله وسلم في خطبة أخرى بالمدينة: "... واصدقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم وتحابوا بروح الله بينكم إن الله يغضب أن ينكث عهده والسلام عليكم "(4) . وذلك كي يحفز الناس على المشاركة الاجتماعية ويزرع فيهم فكرة التواجد الاجتماعي، التي تثمر من خلال ما يقوم به الفرد من أعمال ومعاملات وعلاقات مع الآخرين.

ج- السياسية:

لقد أدخل الرسول صلى الله عليه وسلم فكرة مستحدثة، تتمثل في التنظيم والحكم السياسي بالمدينة المنورة، أساسه الشورى: " والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون".(5) وهو المستوحى من

الشريعة الإسلامية التي جعلها الرسول القانون العام القاعدي للنظام الإسلامي بحيث يتحصل هذا النظام الشوري للحكم السياسي بالمدينة على شرعيته من هذا القانون.

إذن فهي شريعة تنزيلية ربانية أخذها الرسول صلى الله عليه وسلم من القرآن، فطبقها كما شرعها الله بتبيان كيفية تشريعها وشرعيتها. فهذا التنظيم الإسلامي الجديد يهدف إلى إقامة العدل ورعاية شؤون الأمة العامة .

لقد وضع الرسول عليه الصلاة والسلام، إستراتيجية اتصالية أساسها التفاهم، التواصل، الإخاء، التعايش، الاندماج، المشاركة، الترابط، التلاحم، المساعدة والتعاون الاجتماعي بين المسلمين في المجتمع المدني " لتأسيس وتكوين جماعة مشتركة المصالح والأهداف، مسيرة ومنظمة وفق منهج نبوي يهدف إلى وضع نسق ديني / اجتماعي/ سياسي/ أخلاقي " مدني"، يكون بذلك اللبنة الجوهرية الأولى لمشروع الدولة الإسلامية. إذ انساقت هذه الجماعة بطريقة عقلانية، شعورية أو لا شعورية، إدراكية (كلهم في نفس الوقت أو منفصلين) لهذا المنهج ولهذا النسق بدون أي نزاع أو رد فعل سلبي، أو ترددات شخصية خاصة. فاندمج واتحد وانصهر الأنصار والمهاجرون بقيادة القائد الأول المطبق والمنفذ للإستراتيجية الاتصالية المأخوذة من القرآن، الدستور الأول للأمة الإسلامية.

وتكونت جماعة الفضاء " المدني" الملتف حول الدعوة المحمدية بدون معارضة أو اختلاف حول القائد أو حول الإستراتيجية الاتصالية. تكونت من أجل الاستجابة لندائه، لأوامره، لقراراته المتخذة عن طريق الشورى لمواقفه لأحاديثه، لتفسيراته، لإرشاداته، لموعظته، لسلوكاته وتصرفاته سواء في ميدان العبادات عامة أو في ميدان المعاملات والعلاقات العامة، لتحقيق حياة اجتماعية أفضل وأحسن فكانت بذلك الاستجابة مباشرة، كون التأثير والإقناع الذي تحتويها هذه الإستراتيجية، قوية الحجة والبرهان (المحتوى)، واضح المصدر (المرسل)، سهل التبليغ وكيفية التبليغ (القناة والوسيلة المستعملة)، عقلاني التنفيذ والتطبيق.

فنتج عن هذه الاستجابة رأي خاص بالمدينة، متكون من المهاجرين والأنصار مسير، منظم ومهيكل ومتبلور من طرف الدعوة المحمدية (القرآن والسنة دائما وأبدا) التي أرسى قواعدها وأُسُسِها القيمية الرسول صلوات الله عليه بطريقة انسجامية (أي انسجامية الزمان بالمكان، انسجامية السلوك بالفعل وبالقول، انسجامية المتناهي واللامتناهي...). لقد وضع النبي استراتيجية اتصالية، منسجمة مع القيم المؤسسة للدين الإسلامي. هذه الاستراتيجية خاصة بالبنية الاجتماعية المنطقية والعاطفية للمدينة.

د– العسكرية:

عمد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى تكوين الجيش بقيادته، كي يحمي المسلمين بادئ الأمر، ويعزز بعد ذلك الدولة الإسلامية الفتية.... فحارب الكفار من قريش، وخاض الفتوحات الإسلامية بقوة وعزيمة بفضل السرايا التي كونها ضمن هذا الجيش مثل: سرية سعد بن أبي وقاص، سرية حمزة رضي الله عنه وسرية عبيدة بن الحارث،... وأصبح هذا الجيش من أقوى الجيوش في عهد سيدنا عمر بن الخطاب الذي استطاع أن يفتح العديد من الأراضي في المشرق وفي المغرب العربي وفي جنوب آسيا.

هـــ – الاقتصادية:

أقام الرسول صلى الله عليه وسلم نظاما اقتصاديا يعتمد على الزكاة التي تعتبر مظهرا من مظاهر التكافل الاجتماعي، تهدف إلى التقليل من نسبة الفقراء أو مساعدتهم بإطعامهم وإسكانهم أو إيجاد عمل لهم... كما قام الرسول بتنظيم الأسواق عن طريق تعيين المحتسب " الذي يراقب أحوال السوق، فيمنع الغش ويراقب الأسعار ويؤدب المخالفين. (6)

و– التربوية التعليمية:

كان النبي صلى الله عليه وسلم أول من جمع العرب في حلقة لتعليمهم الدين الجديد... " فهو بالضرورة أول معلم للمؤمنين إذ أنه كان حامل كلام الله المنزل ومبلغه ومثالا للكمال البشري، وقد كان للطريقة التي أدى بها الرسول رسالته كمعلم أعظم الأثر في مسيرة التعليم الإسلامي بأكمله"(7). " فطلب الرسول صلى الله عليه وسلم من عبادة بن الصامت تعليم الناس القرآن بالمدينة وأمر عبد الله بن سعد بن العاصي الذي قتل في يوم بدر تعليم الكتابة. أما بعد غزوة بدر، فقد كان أسيرها يفتدي نفسه إذا علَّم عشرة من الصحابة القراءة والكتابة، وبذلك فتح الرسول أول مدرسة للتعليم"(8). كما أوجد الرسول عدة مناصب "حكومية " تسهل عليه عملية تنظيم الشؤون العامة للناس، مثل " الوزارة ". فكان مجموعة من الصحابة في المقام الاستشاري الأول له، بالإضافة إلى صاحب السر، المؤذن، الكتَّاب (كتاب الوحي ـــ كتاب الرسائل وكتاب العهود والصلح)، صاحب الحاكم. وكان معيقت بن أبي فاطمة الدوسي حافظا له،(9) المحاسب، الإمارة العامة على النواحي، المحتسب، المقيمون للحدود، صاحب الجزية: العامل على الزكاة، الخارصون وهم الذين يقدرون الثمر على الشجرة لاستيفاء الزكاة، القضاة.

من هذا نلاحظ أن المدينة المنورة " أو الفضاء المدني"، تَكَوَّن على أساس منظومة اتصالية اجتماعية بمعطياتها وكياناتها المختلفة، أرسى قواعدها المعمارية المعنوية والمادية رسول الله صلى الله عليه وسلم وفق مبادئ الشريعة الإسلامية. منظومة تبلورت وتأثرت بفضل ثلاثة فضاءات عمومية جعلتها ذات وزن وأهمية في السيرورة التاريخية للدولة الإسلامية وهي:

1. التنزيل الحكيم، فضاء مرجعي قاعدي. دستور الله عز وجل.
2. شخصية النبي وسيرته، شخصيته ذات سلطة دينية، روحية ومادية. بفلسفة للحياة الدنيوية والأخروية.
3. سلم الانضباط والمسؤوليات الجماعية، المتغيران اللذان التزم بهما المؤمنون في تنظيم الشؤون العامة للمدينة.

وبذلك كوَّن الرسول تنظيما اجتماعيا لحكمه في "المدينة"، بدستور وقوانين، ومؤسسات مختلفة... استطاع من خلالها أن يبسط، فيسهل عليه التفاهم والتواصل والاتصال بين الناس بتحديده للمفاهيم والوظائف والمعاني والأدوار والقيم والمعايير التي يُبْنى عليها ووفقها المسلم علاقته مع ربه ومع الآخرين.

لقد بدأت الانطلاقة الجوهرية للدعوة المحمدية من نقطة بداية الوحي في مكة المكرمة واستمرت في المدينة المنورة حتى وفاة الرسول بها. هذه الدعوة التي استطاعت أن تغير تغييرا جذريا وبطريقة اتصالية عقلانية D’une méthode communicationnelle très rationnelle المجتمع العربي في شبه الجزيرة العربية رأسا على عقب، لأنها استطاعت أن تقضي على الفضاءات العمومية التي كانت تحكم مكة، وعلى سلطة وهيمنة وقوة الدين القديم، معوضة إياهم بدين الله الوحيد (الإسلام)، وبفضاءات عمومية أخرى أكثر صلابة مستمدة قوتها من القرآن الحكيم، كلام الله الحنيف.

إن الدعوة المحمدية، التي بدأت بمكة، كان لها ما يميزها وما يفرقها عن الدعوة التي استمرت في المدينة. إلا أنها دعوة محمدية واحدة ذات استمرارية في الزمان بنفس المنطلق والمبادئ، مكونة فضائين عموميين معنويين وماديين في آن واحد، أولهما الفضاء المكي ثم الفضاء المدني.... فضائين عموميين متكاملين، أثرا تأثيرا بالغا وعميقا وراسخا في تاريخ سيرورة الأمة الإسلامية على جميع الأصعدة. يربطهما، أولا، المتغير الأساسي القاعدي، الثابت، المتحرك والمستقل الذي يُكوِّن لوحده منظومة اتصالية عامة بمتغيراتها الدينية، الأخلاقية، العلاقتية، الاجتماعية السياسة، الاقتصادية الفكرية، الإبداعية، العلمية، العملية...: وهو التنزيل الكريم، ثم يليه المتغير الأساسي الثاني، التابع، المتحرك الذي أسس منظومة اتصالية عمومية ثانية تعتمد أساسا على المنظومة الاتصالية الأولى وهو بطبيعة الحال الرسول عليه أزكى الصلاة والسلام، الذي بنا نظاما وتنظيما إسلاميا قوي الإيمان، صلب العزيمة مهيكل وفق قواعد ومناهج مبتكرة، خاطب واتصل وبلغ وأنذر أمته بطريقة عقلانية تعتمد على الحجة والبرهان.

إنه النظام النبوي ذو البنيان المتين، الذي أدى إلى تكوين الدولة الإسلامية والمجتمع الإسلامي. ولكونه فضاءً عموميا قاعديا مبنيا على أسس عقلانية، قوية التماسك، شديدة الإيمان والعقيدة، تفاهمية اتصالية، ربانية المصدر، فإنه أثر تأثيرا بالغا في سيران وسيرورة هذه الدولة وهذا المجتمع الإسلامي.

3. الركائز الدينية، التشريعية، فضاءات عمومية اتصالية علاقتية:

تعتبر الركائز الدينية التشريعية بدورها من بين أهم مكونات المنظومة الاتصالية التي ساعدت وهندست الوعي الجماعي والمشاركة الجماعية للمسلمين. آليات سطرت علاقات المسلمين مع ربهم وعلاقاتهم مع بعضهم البعض فقد حرص الرسول صلى الله عليه وسلم كل الحرص على تطبيقها، انتهاجها، شرحها، تعميمها والتشبث بها، ذلك لأنها عماد الدين الإسلامي، من جهة، وميكانيزمات نجاح فاعلية النشاطات الاتصالية الاجتماعية، السياسية والأخلاقية. من جهة أخرى، فمثلت هذه المتغيرات في الفرائض الخمس، مبدأ الشورى، العدل، المساواة، القضاء.

وقد أدت هذه الشعائر إلى تكوين " الجماعة " بقيادة قائد الرأي الأول لها وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبذلك أدت إلى تكوين رأي عام مستجاب استجابة مباشرة للشعائر أو للرسول كونه القدوة الحسنة في تبنيه هذه الآليات والعمل بها. فهي بذلك مفاهيم قاعدية اتصالية، وفضاءات عمومية تظهر من خلالها طبيعة الفضاء العمومي الاتصالي الديني الاجتماعي القيمي لهذه المرحلة وللمراحل الأخرى.

أ– الفرائض :

يشترك المسلمون في تأديتهم لفرائض الدين الإسلامي التي فرضها سبحانه على عباده، بحيث تمثل هذه الفرائض العامل المشترك الديني (العبادات) بينهم وهي خمس فرائض: الشهادة بشقيها، الصلاة، الصيام،الزكاة وحج بيت الله لمن استطاع إليه سبيلا. بحيث شكلت هذه الفرائض منذ أن فرضها الله في كتابه المنزل فضاءين متكاملين متوازيين ومترابطين الخاص منه والعام للفرد المسلم الذي تبناها كقاعدة دينية منطلقاتية للعبادات الأخرى والمعاملات.

تعتبر هذه القاعدة الدينية عماد وصلابة وقوة الدين الإسلامي، وقوة وصلابة المسلمين في تماسكهم وتوادهم لبناء مجتمع صحي دينيا، ينعكس على صحة الميادين الأخرى المكونة للمجتمع. وتمثل هذه الدعائم الدينية في هرم قاعدته: الصلاة – الصيام – الزكاة والحج. وتتربع على عرش هذا الهرم، الشهادتان والتوحيد.

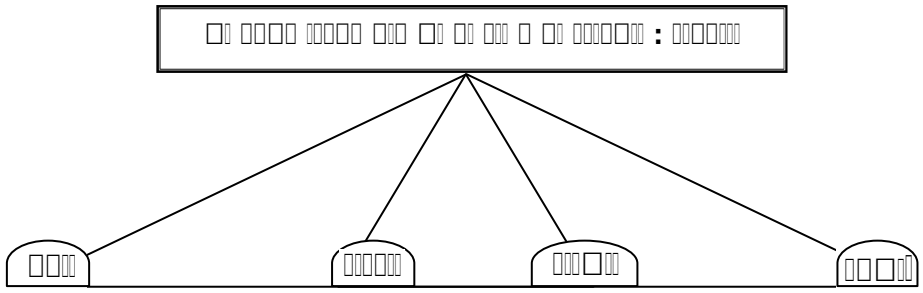

- **الشهادة:**

لقد اشترط وفرض وأوجب الدين الإسلامي مبدأ التوحيد وجعله الركيزة المطلقة الجوهرية لكل العبادات الأخرى. فمن لا يؤمن بوحدانية الخالق، فقد حرم من رحمته وعفوه وجنته. وأكد لنا سبحانه هذه الوحدانية في قوله في سورة الإخلاص:" قل هو الله احد الله الصمد لم يلد و لم يولد"، فهو الواحد، الأحد، الأول لا أول له، والآخر لا آخر له، والظاهر، والباطن، والصمد... (أسماء الله الحسنى). كما أكد لنا هذه الوحدانية من خلال مخلوقاته ومن خلال النظام الكوني الذي يتحرك باستجابة ونظام وانتظام... لذلك وجب علينا أن نشهد أن لا إله إلا الله، ملك الملك وحده لا شريك له... متبوعة بالشهادة أن محمدا رسول الله الأمين اصطفاه سبحانه عن باقي البشر.

وجاء الرسول مؤكدا على وحدانية وربوبية الخالق وأنه نبي الله، لا نبي بعده .

– الصلاة:

إن الصلاة لغة تعني الدعاء الذي يقترب بواسطته الإنسان إلى ربه طالبا الاستغفار عن ذنب أو شكر النعمة أو رفع لضيق... والصلاة هي أول اتصال روحي يمكن الإنسان العبد من مناجاة خالقه المعبود(10). بذلك فالصلاة لب الإسلام، وفريضة مؤكدة على كل مسلم. إن أول ما قام به الرسول صلى الله عليه وسلم عند وصوله المدينة، هو بناء المسجد لتوثيق الصلة بين المسلمين وربهم، وإرساء بذلك هذه القاعدة المفروضة عليهم، خاصة في صلاة الجماعة التي تعتبر فضاء عموميا علاقاتيا تماسكيا بين الأفراد، وبينهم وبين الخالق، متوجهين جميعهم إلى قبلة واحدة وإلى رب واحد.

فبالرغم من انتشار المسلمين في بقاع الأرض، واختلافهم في الجنسيات واللغات إلا أنهم يتوجهون إلى ربهم بصلاة واحدة موحدة مكونين فضاء عموميا اتصاليا مع ربهم، ومع بعضهم البعض، يجمع هذا الفضاء صفوفهم، أغنياء أكانوا أم فقراء، ضعفاء أو أقوياء، أسيادا أو من عامة الناس دون تمييز أمام رب واحد، لا فرق بينهم إلا بالعمل الصالح والقلب السليم. فمثلا نرى أن صلوات الشكر بالتهجد والتراويح في شهر رمضان، التي تشترك فيها الأمة الإسلامية حينما تنحني الملايين من الجباه

لتلمس الأرض وترفع في حركة منتظمة وفي صمت لا يمزق سكوته إلا صيحات الله أكبر، لدليل على اعتبار الصلاة فضاء عموميا دينيا روحيا تنظيميا ضابطا لحركية وسلوكات الأفراد في هذه الحالات.

– الصيام :

إن الصيام فريضة ثانية، أنعمها الله على عباده لحسن واستمرارية طاعته وعبادته، ففرض الصيام في شهر رمضان شهر من الأشهر الحرم التي اصطفاها الله، شهر الرحمة والتوبة والمغفرة، شهر كريم أنزل فيه القرآن. والصيام بمعناه العام هو الامتناع عن الطعام والشراب من الفجر إلى المغرب. إلا أنه لا يصح إن لم يق المسلم كل حواسه (أفعال، وأقوال، وتصرفات، وسلوكات) عن الأعمال السيئة. لذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم يكثر من الدعاء والصلاة والتصدق في هذا الشهر حيث تضاعف الحسنة بعشرة من أمثالها ويحث أصحابه والمسلمين على ذلك، لطاعة الله وتطبيق فروضه لتقوية إيمانهم بالله وبالرسول، وتقوية تواجدهم الاجتماعي فيما بينهم.

– الزكاة :

لقد ركزت الشهادة والصلاة والصيام على ربط الصلة بين المخلوق وخالقه، أما الزكاة فقد ركزت على ربط صلة وعلاقة ومودة الإنسان المسلم بالمسلم لمساعدته ومساندته، وذلك لبناء نسق اجتماعي أخوي، وليتحقق مبدأ التواجد الاجتماعي الذي تعزز عن طريق تكفل بعضهم البعض، فقد شدّد الرسول عليه الصلاة والسلام على هذه الفريضة لمحو عدم المساواة، التهميش واللامبالاة من طرف الأغنياء اتجاه الفقراء، بحيث خصص لها نظاما اقتصاديا مسيرا ومنظما من قبل من يدير الشؤون العامة الاقتصادية .

– الحـــج:

إن الحج من بين الفرائض التي يتمنى كل مسلم تأديتها لكي يتقرب من ربه، تقربا أكثر إيمانا وأعمق تقوى، لما لذلك المكان الذي يُحج إليه من مكانة وقداسة عند الله ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم، ومن قبله نبينا إبراهيم وابنه إسماعيل. ذلك المكان الذي يُعُرف بغمرة الأحداث والمشاعر الربانية الروحية بين سيد الخلق وربه جل جلاله... ذلك المكان الذي حج إليه سيدنا إبراهيم وإسماعيل وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. وقد حج الرسول (ص) حجة الوداع وتوفي بعدها، وذلك في ذي القعدة من العام العاشر للهجرة، ومن بعدهم الصحابة والتابعون.... ومن إتباعهم من الخلق الصالح. وكانت إذن حجة واحدة وأخيرة، بالرغم من استطاعته القيام بهذا الفعل أو السلوك أكثر من مرة موضحا بهذا أن الحج فريضة على كل مسلم إن استطاع إليه سبيلا مرة في حياته.

– الشورى:

الشورى مطلب ضروري ونفعي لتسيير الشؤون العامة للناس، إذ يرى الشيخ أبو الأعلى المودودي أن الشورى بينهم أي بين أفراد المجتمع تتطلب خمسة متغيرات لتطبيقها كمفهوم وكمعنى وكوسيلة اتصال سياسي دائما لتسيير وتنظيم و مؤسّسَات النظام السياسي الذي يتبنى مفهوم الشورى كركيزة جوهرية له. وتتمثل هذه المتغيرات الخمسة فيما يلي:

1. أن ينال الناس الحرية الكاملة في التعبير عن أرائهم في أمور المجتمع التي تتعلق بهم وبحقوقهم ومصلحتهم ويعلموا تمام العلم كيف يجري تصريف هذه الأمور.(11)
2. أن مسؤولية تصريف أمور المجتمع لا بد أن يتحملها من تم تعيينه أو اختياره برضى المسلمين وبكل حرية.
3. أن يختار للتشاور مع القائد أو الحاكم أو الأمير الذين يحصلون على ثقة المسلمين بعيدا عن الضغط أو الإكراه والنفوذ.(12)
4. أن يشير هؤلاء الممثلون بما يمليه عليهم إيمانهم وضميرهم وأن ينالوا حرية التعبير عن رأيهم كاملة و تامة.
5. التسليم بما يجمع عليه أهل الشورى أو أكثرهم، فلا معنى للشورى إذا استمع ولي الأمر إلى آرائهم ثم يختار ما يراه هو نفسه بحرية تامة.(13)

- المساواة:

جاء الدين الإسلامي الحنيف في جو يسود التمييز والتفرقة بين الناس، بين القوي والضعيف، الغني والفقير، السيد والعبد،. فعكف سيد الخلق بالقضاء على هذه الفوارق قائلا في أحاديثه الشهيرة: " الناس سواسية كأسنان المشط" وقوله صلى الله عليه وسلم: " لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى" أي الفرق الوحيد هو التقوى والعمل الصالح والإخلاص والإيمان القوي بالله. كما تظهر المساواة بين المسلمين من خلال الحقوق والواجبات التي أوضحها بينها والدين حتى لا يتعدى الواحد على الآخر باحترام الحدود الخاصة الفردية والعامة الجماعية لكي تتناسق وتتوافق السلوكات والعلاقات ضمن فضاء تفاهمي اتصالي عمومي أو خاص.

يرى طه حسين " إن الإسلام إنما جاء قبل شيء بقضيتين اثنتين: أولهما التوحيد، وثانيهما المساواة بين الناس، وكان أغيظ ما غاظ قريشا من النبي ودعوته أنه كان يدعوها إلى هذه المساواة و لم يكن يفرق بين السيد والمسود ولا بين الحر والعبد ولا بين القوي والضعيف وإنما كان يدعو إلى أن يكون الناس جميعا سواء... وقد سخطت قريش أشد السخط وأعنفه على النبي صلى الله عليه وسلم لما أظهر من ذلك... حتى لأكاد أعتقد أنه لو قد دعاها إلى التوحيد دون أن يعرض للنظام الاجتماعي والاقتصادي ودون أن يسوي بين الحر والعبد أقول: لو كان قد دعاهم النبي إلى التوحيد وحده دون أن يمس نظامهم الاجتماعي والاقتصادي لأجابته كثرتهم في غير مشقه و لا جهد، أو لأجابه من قريش من أجاب وامتنع عليه منها من امتنع، دون أن يلقى في ذلك مشقة أو عنتا... ومهما يكن من شيء فقد سخطت قريش على النبي الكريم لأنه عرض نظامها الاجتماعي وفرض عليها نوعا من العدل لا يلائم منافع سادتها وكبرائها".(14)

– العـــــدل:

لقد اعتبر الدين الإسلامي مبدأ العدل من القواعد الأساسية التي يرتكز عليها الحكم الإسلامي لضمان طاعة الرعية: طاعة المحكومين للحاكم، وإخلاصهم ووفاءهم له وذلك من أجل استمرار استقرار النظام السياسي الذي ينعكس على استقرار النظام الاجتماعي والاقتصادي. فالعدل في الشريعة الإسلامية، مستمد من القرآن الذي أعطى أهمية كبرى لهذا المفهوم والمتغير الذي يساعد إلى حد كبير، أو يلعب دورا مهما في بناء الفضاءات العمومية المختلفة التي تخدم الفضاء العمومي السياسي، بطريقة تستجيب له مباشرة إذا طبق وأنصف وعدل في تطبيق وإتباع هذا المنهج الديني. إننا لا نقصد في حديثنا في هذا المقام عن مبدأ العدل في الإسلام، العدالة في ميدان القضاء والفصل بين الخصومات فحسب، وإنما العدل في كافة مجالات الحكم والإدارة.

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم عادلا، يأمر أصحابه بالعدل والإحسان بين الناس. فعن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه عن النبي قال عن الله عز وجل: " يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرما، فلا تظالموا"(15). أي لا يظلم بعضكم بعضا. إن البشرية لم تر رجلا في مثل عدل وعدالة وإحسان وسماحة الرسول (ص) الذي اقتدى به الخلفاء في مختلف فترات خلافتهم.

- **القضـــاء:**

يقول تعالى في سورة المائدة: " وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه. فاحكم بينهم بما انزل الله. ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق. لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا. ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم. فاستبقوا الخيرات. إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون "(16). وقوله تعالى أيضا: " فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما "(17).

موضحا لنبيه أن الحكم والفصل بين الناس يكون بالكتاب، بالحق المبين. وأن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، القاضي الأول للمسلمين. ولا حكم لغير النبي باعتباره الحاكم الأول بين المسلمين. إذ أن حكمه يكون دائما وأبدا مبنيا على العدل والمساواة. لذلك حرص صلى الله عليه وسلم خاصة عندما بدأ في بناء النظام والمجتمع الإسلامي في المدينة، على أن يتولى الفصل بين الخصومات والمنازعات التي تقع بين المسلمين. فكان يمثل الجهة القضائية الوحيدة بالنظر إلى محدودية رقعة المجتمع الإسلامي، وبالنظر إلى قلة القضايا التي كانت ترفع إليه.

ولكن، بعد أن اتسعت رقعة الدولة الإسلامية في أنحاء الجزيرة العربية وفي الأمصار الأخرى نتيجة للفتوحات الإسلامية، انتهج الرسول سياسة قضائية جديدة، لم تكن من قبل، إذ فرضت الظروف المستجدة إدخال أفكار جديدة مستمدة في هذا المجال. فأرسل النبي (ص) ولاة ليديروا شؤون البلاد والأمصار البعيدة وكانت ولاية القضاء، جزءا من الولاية العامة لهؤلاء الولاة (18). بحيث بعث الرسول علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وعتاب بن أسد إلى مكة، حيث قاما بالقضاء بين الناس(19).

إن مهمة القاضي ذات أهمية ووزن ثقيل في الإسلام، وذلك لأن العدالة تعد من الركائز الأساسية لقوام واستمرار المجتمع، بحيث إذا صلح القضاء صلح المجتمع والعكس صحيح. وهذا راجع إلى أن العدالة أو القسط أو القضاء بين الناس بالمساواة والعدل، إنما يسهل عملية التفاهم والتواصل والاتصال بين الحاكم والمحكومين. فهو فضاء عمومي حافظ لحقوق وواجبات وكرامة واحترام الأفراد لبعضهم البعض مهما تكون مكانتهم في المجتمع بخاصة إذا اعتمدوا اعتمادا صريحا على دستور الله وُسنة نبيه.

... إنها من بين أهم المفاهيم أو الآليات الدينية المعنوية والمادية الاتصالية التي تبنى ويتشكل ويتهيكل بواسطتها وضمنها الفضاء العمومي الاتصالي الإسلامي، الذي برز إلى الوجود منذ أن بدأ سيد الخلق دعوته إلى الدين الحنيف، سرا ثم علانية. هادفا إلى القضاء على ما وجد من فضاءات عمومية تسلطية سلطوية، وبناء أو إعادة بناء فضاءات عمومية أخرى مستمدة من القرآن، الدستور الرباني الوحيد المطلق، ومن سيرته وسنته الحميدة، إنه الرحم الحامل والمغذي للمنظومة الاتصالية العمومية الجديدة التي وجدت بمجرد بداية نزول الوحي.

هذه المنظومة الاتصالية الاجتماعية التي أعطت للمجتمع العربي مفهوما آخر، طبيعة نسقية جديدة، une nature structurelle ووظيفة بنيوية مهندسة بمنهجية وأدوات متغايرة أرسى مبادئها وقواعدها خاتم الأنبياء والرسل، عند بداية الدعوة في مكة إلى استقراره في المدينة، أين توفي ودفن.

إن فترة الدعوة المحمدية، بالرغم من قصر مدتها، تعد طويلة الاستمرار في الزمان كتواجد في المكان، وكمرجعية وكانطلاقة مؤسساتية للمجتمع العربي الإسلامي. لقد أثرت تأثيرا عميقا عقلانيا في جميع الحلقات التاريخية للأمة الإسلامية لأنها صناعة للوعي والضمير والمشاركة الجماعية. صناعة لتأسيس العلاقات العامة المبنية على المودة والرحمة والإخاء والمساواة والتعايش. صناعة لفضاء عمومي عام ليس فقط للمسلمين فحسب بل لجميع البشر.(إذا اقتدوا بها). صناعة حددت وشرحت وسهلت ـــ بفضل مفاهيمها ومعانيها وأهدافها ـــ العملية الاتصالية والاتصال بمبادئ ومعايير أخلاقية، عقلانية إنسانية. صناعة إبداعية فلسفية لمعنى الحياة العامة للناس. صناعة أخذت واستمدت قوتها وصلابتها من القرآن والتوحيد.

4. خطبة الوداع: الحلقة التاريخية الاتصالية بين الماضي– الحاضر والمستقبل.

لقد اخترنا خطبة الوداع كفضاء عمومي ديني ضمن مكونات المنظومة الاتصالية المحمدية، لأنها تمثل الحلقة الاتصالية الانتقالية من مرحلة الدعوة المحمدية إلى مرحلة ما بعدها. وما احتوته الخطبة (الرسالة) من نصائح وإرشادات وتوجيهات وأمانات، لدليل على حرص الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على التمسك والثبات والاحتفاظ بما أتى به الإسلام. هذا الدين الذي سيبقى خالدا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

خطبة، صنعت الوعي والضمير الفردي والجماعي للمسلمين لاستكمال سيرورة الإسلام بنفس الوتيرة وبنفس القيم وبالمبادئ وبالمسؤوليات الفردية والجماعية أمام بعضهم البعض وأمام الله ونبيه. فهي فضاء عمومي ضمن فضاء عمومي آخر (السياق الديني والاجتماعي العام لها) موجهة إلى عامة الناس المتواجدين في مكان الخطبة وأمام الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في ذلك الوقت، أو للذين من بعدهم. يقول الأستاذ محمد أمزيان: "إن حجة الوداع، دشنت دورة جديدة في علاقة الوحي بالتاريخ، حيث كان الإعلان عن نهاية الوحي كسلسلة أخبار متتالية وتدشين حلقة جديدة من حلقات التاريخ، تفاعلت فيها ثنائية العقل بالنص (...) هكذا تبدأ علاقة جديدة بين المطلق والنسبي، حيث يتم دعوة العقل المسلم للوفاء بالتزامات الخلافة الراشدة وتولي مسؤولية الحفاظ على هيمنة الوحي على التاريخ"(20)... لماذا؟ لأنها الحلقة التاريخية والتأريخية، العقلية والعاطفية التي ربطت بين الدعوة المحمدية والفترة التي تلت وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم لمرحلة جديدة، بوجه آخر لاستمرارية الدعوة النبوية بشكل آخر. حملها على عاتقهم كمسؤولية ثقيلة، الواحد بعد الآخر: أبو بكر الصديق، عمر بن الخطاب، عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين. فالبرغم من أن كل مرحلة من مراحل هؤلاء الصحابة تختلف من حيث مكوناتها ومنطلقاتها وفضاءاتها العمومية، إلا أنها استمرارية دينية، تاريخية إسلامية بمبادئها وقواعدها العامة التي حرص الصحابة كل الحرص الإقتداء بنبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم والسير على خطاه وعقيدته.

يقول صلى الله عليه وسلم في خطبته: "... وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به، فلن تضلوا أبدا، أمرا بينا، كتاب الله وسنة نبيه..." الفضائين العموميين الجوهرين القاعدتين لاستمرارية قوة الدولة الإسلامية التي قدم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أدوات بناءها. لقد ترسخت خطبة الوداع في التاريخ الإسلامي مكونة في حد ذاتها فضاء اتصاليا بين الذي سبق والذي

سوف يأتي. مهيكلة لاستمرار السيرورة النبوية في الأزمنة والأمكنة المختلفة، بأن نشهد نحن ومن يأتي بعدنا أن رسول الله هو محمد عليه الصلاة والسلام خاتم الأنبياء والمرسلين، مبلغ الرسالة الربانية بثقلها التي لا تطيق الجبال أن تحملها.

... خطبة، نقلت العقل البشري المسلم ولقنته كيفية تحمل المسؤوليات الفردية والجماعية، فالنبي توفي جسديا وبقي عقلا وعاطفيا. والمسلمون يتعاقبون أجيالا بعد أجيال فما عليهم إلا التمسك بالقرآن والسنة حتى لا يضلوا بعد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.... خطبة، ربطت البعد النصي بمفرداته وجمله وسيميائيته وإعرابه وفنية نسجه بأبعاد اتصالية اجتماعية معنوية كثيرة أضفت عليه هيمنة الوحي على التاريخ.

لقد تمثلت هذه الأبعاد في:

– **البعد الديني العقائدي**: وهو استمرارية المسلمين على دينهم وعدم التخلي عنه بعد وفاة الرسول (ص). فالرسول كان الوسيلة، الرسالة والقناة التي اختارها سبحانه لدعوة الناس بالتنزيل ونشره وتبليغه، المستمر الوجود والخلود في الدنيا والآخرة.

– **البعد الزماني**: إن الرسالة التي تحملها خطبة الوداع، رسالة غير ظرفية، بل هي صالحة لكل زمان ومكان باختلاف آلياته وأشخاصه ومجتمعاته. فهي مرجعية مخصصة للمبادئ والقواعد الأساسية التي تبنى عليها العلاقات المختلفة بين الناس، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد ارتبطت هذه الخطبة بتوقيت اتخذه الرسول صلى الله عليه وسلم حجة وشاهدا على ما يقوله بحيث قال: " إن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة شهركم هذا... " وهو يوم الحج الأكبر ... على أن هذه الأحداث الزمانية (الشهر الحرام والحج) التي تتكرر كل عام، إنما هي سند وشاهد مادي ومعنوي على ما يقوله، وعلى أنها متغيرات تذكر المسلمين في كل مرة لهذه الخطبة العظيمة.

– **البعد المكاني**: يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: " وأن الله قد حرم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة بلدكم هذا".(مكة) لما لهذا المكان بالذات الذي اختاره الرسول لمخاطبة المسلمين من مكانة وقيمة في قلوبهم.

... إن هذه الخطبة في رأينا، لم تضع نقطة نهاية مرحلة والعودة إلى بداية السطر، بل كانت في حد ذاتها نقطة نقلية، نقطة نظامية، تنظيمية، دامت فقط أيام الحج، نقطة رباطية لسيرورة الدين والدولة الإسلامية.

... استمرارية باختلاف الفاعلين، والآليات والظروف والأهداف والمفاهيم والمعاني والمؤسسات والغايات... والفضاءات العمومية تكونت فيها وبها/ ومن حولها هذه المتغيرات المذكورة.

لقد اشتملت خطبة الوداع على كل متغيرات العملية الاتصالية. إذ كونت فضاء اتصاليا بمتغيراته الضاربة في الأبعاد المذكورة سابقا... حاملا قيما أخلاقية عقلانية لكيفية إبقاء الاستمرارية المذكورة سابقا كذلك... قيم تجلت في متغيرات العملية الاتصالية لهذا الفضاء الاتصالي الاستثنائي، فكانت المتغيرات كما يلي:

- المرسل: شخصية الرسول المادية والمعنوية، وثقل وزن مكانتها بين المسلمين.
- المتلقي: جمهور المسلمين الذين أتوا من كل فج عميق لتأدية مناسك الحج. حشود هائلة من الحجاج الذين امتلأت بهم ساحة الحرم.

 الرسالة: تلك الخطبة التي كانت كلماتها ثقيلة، ثقل الرسالة التي حملها عليه الصلاة والسلام مدة سنوات مصارعا بها الكفار والمشركين وجاهد لبناء أمة موحدة.

 القناة: كانت الكلمة اللفظية (الاتصال الشفهي اللفظي) ، تطلق كالرصاصة إلى قلب وعقول الجماهير المسلمة. فاللغة المنطوقة هي القناة المستعملة من طرف الرسالة.

 الزمان: من ذي القعدة من العام العاشر للهجرة، فترة الحج الأكبر.

 المكان: عرفات بمكة المكرمة.

 الهدف: يرمي هدف هذه العملية الاتصالية إلى التمسك والتشبث بدين الله الحنيف حتى لا تضل أمته من بعده قائلا صلى الله عليه وسلم " فإني قد بلغت" "وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا أمرا بينا كتاب الله وسنة نبيه"

– رجع الصدى: خاطب النبي، الحاضرين قائلا لهم: "أيها الناس" خمس مرات... يناديهم ويخاطبهم، لكي ينتبهوا، يهتموا، يستوعبوا يفهموا ويدركوا ما يقوله خاصة وأنه بدأ خطبته قائلا: "... أيها الناس اسمعوا قولي، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا، بهذا الموقف أبدا... "، لكي يشهدهم أنه بلغ الرسالة والأمانة أحسن وأفضل تبليغ... لذلك قال: "اللهم هل بلغت" فذكر الناس قائلين" اللهم نعم" كان رجع صدى مباشرا و فوريا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " اللهم أشهد".

– نوع الاتصال: تدخل هذه الخطبة ضمن الاتصال الجمعي بما أن المرسل كان فردا والمتلقي مجموعة كبيرة من الأفراد وفي نفس الوقت كان اتصالا أفقيا، شفهيا باستعمال اللغة كأداة أساسية تبليغية تفاهمية.

– السياق: ألقيت هذه الخطبة في سياق ديني اجتماعي في موسم الحج وهو فضاء مليء بالمشاعر الدينية والاجتماعية.

استطاعت هذه الخطبة الاتصالية الاستثنائية، المتموضعة والراسخة في الفكر والتاريخ الإسلامي والحاملة لاستكمال وإنجاز مرحلة وبداية مرحلة ولاستمرار مرحلة، أن تنقل الوعي الجماعي من المعنوي إلى الملموس ومن الملموس إلى المعنوي للربط بينهما في ثنائية اتصالية ابتدعتها هذه الخطبة بعبقرية محمدية بالغة التأثير والإقناع. استجاب لها المسلمون بطريقة عفوية كون الرسول عليه الصلاة والسلام ركز وشدد على المفاهيم المحورية التي ينبغي على كل مسلم تبنيها سلوكا وأقوالا واتصالا بهدف الحفاظ على الإرث الديني الضخم من حيث المعنى أو من حيث الممارسة. ذلك كله لضمان استمرارية التواصل و التحاور والتفاهم بين المسلمين.

من خلال ما تم تقديمه يمكن أن نستنتج ما يلي:

إن النبي، صلوات الله وسلامه عليه، استطاع بفضل اعتماده التام على القرآن الكريم، وعلى عقلانية وأخلاقية سلوكاته وعلاقاته مع أفراد المجتمع المكي ثم المدني، أن يبدع في وضع منظومة اتصالية / اجتماعية / دينية / سياسية مبنية على المساواة والعدل بين جميع مكوناتها من مرسل ورسالة ومتلقي، في نسق تفاهمي، حواري، تبادلي بين متغيراتها. فأنشأ فضاءات عمومية ذات سلطة معنوية ومادية، معتمدة على القرآن والسنة في تسيير وإدارة الشؤون العامة للناس من سلطة قضائية، سلطة تشريعية، سلطة اقتصادية، و" سلطة " اتصالية ممارسة من طرفه بطريقة إقناعية ، مرجعية (سند) ومحاججتية لاعتماده على الكتاب وعلى قوة وصلابة وحكمة شخصه. إنه شخصية فريدة من نوعها في الإيمان، في الإبلاغ، في الاتصال، في الحوار... في

بناء مجتمع بقيم وحسب معايير مشتركة ومتفق عليها، في انسجام وتناغم تام. فهو نبي الله المختار، مرسل للناس أجمعين، مبشرا ونذيرا.

لقد هُنْدِس في هذه المرحلة فضاء عمومي اتصالي يعتمد على التفاعلية والتبادلية في النقاش والحوار بمرجعية دينية (دائما)، لأنه فضاء عمومي اتصالي ديني. لم يفرض رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيه أو موقفه بالتسلط والقهر والقوة الجبرية، بل فرضه بطريقة معنوية عفوية اتصالية وباحترام. كان يشاور أصحابه في الأمور السياسية والحربية، بالرغم أنه لا ينطق عن الهوى، بل كان وحيا يوحى إليه. وكان يجادل الناس بالتي هي أحسن، فيقنعهم بلغته الخطابية المشبعة بالقيم والأخلاق والتقدير للجميع بما فيهم ذوي الديانات الأخرى، وهو يهدف من خلال هذا إلى جمع شملهم وكلماتهم، ويسعى إلى مؤاخاتهم تحت راية الدين الإسلامي الحنيف، وهو يقضي بينهم بالعدل والمساواة. وبذلك محا جميع الاختلافات والنزاعات التي كانت تنشب بين القبائل العربية.

كما غرس النبي الكريم في أعماق الجميع مبادئ الدين الإسلامي للتشبث بها حتى تبقى أمرا مقدسا لا بديل له. حقيقة إنه بشر ومصيره كباقي كل البشر، لكن مبادئ الدين وأسسه الجوهرية باقية مادامت البشرية. وما خطبة الوداع إلا وعاء حامل وملخص لكل الإستراتيجية الاتصالية التي عكف الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على بنائها طوال فترة دعوته.

تعتبر هذه المنظومة الاتصالية منظومة مرجعية، نظرية وامبريقية، ذات مقاربة منهجية ودينية، خاصة في الزمان وخاصة في العقل البشري،بكل آلياتها وميكانيزماتها التأثيرية لأن عدد المسلمين تضاعف بالآلاف بداية من الدعوة المحمدية وطوال فتراتها. فهي بذلك نظرية غير ملفوظة كتابيا، ولكنها نظرية ملفوظة ميدانيا وواقعا معاشا.

تهيكل نظام سياسي كفضاء عمومي سياسي بمبادئ وقواعد القرآن، أساسه الشورى والتشاور والتوافق التام والإجماع في تسيير هذا النظام السياسي الذي نظم بفضل وعن طريق " الاتصال السياسي " المبني عل الفعل الإيجابي والنفعي للصالح العام. أي القيام برعاية كاملة لشؤون المسلمين.

يعتبر الفضاء العمومي الاتصالي المهيكل بجميع فعالياته ومؤسساته من طرف الرسول صلى الله عليه وسلم أنموذجا اتصاليا بكل مقاييسه ومتغيراته من: هياكل تنظيمية، فاعلين، مرسل، رسائل ومحتويات عديدة على جميع مستويات العبادات والمعاملات، تأثير وإقناع وسياق تاريخي وحضاري وديني مميز بميزة المرحلة.فهو من كل هذا مشروع مجتمع صالح لكل زمان ومكان.

الهوامش:

* بحيث بدأت الدعوة النبوية بأقارب الرسول كزوجته خديجة، وابن عمه علي بن أبي طالب ثم ببعض رجالات قريش كأبي بكر الصديق، الذي اسلم على يده عثمان بن عفان والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله. فسميت هذه الدعوة بدعوة الأفراد لأن الرسول كان يدعو كلا من هؤلاء على إنفراد، وسموا بالسابقين الأولين.
من كتاب الدكتور حسن إبراهيم حسن تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ج1، ط 13، الدولة العربية في الشرق ومصر والمغرب والأندلس، القاهرة، مكتبة النهضة العربية بيروت، دار الجيل سنة 1991، ص 42.

[1] أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري، تحقيق شحاتة إبراهيم/ السيرة النبوية، ج3، المجلد الثاني، القاهرة، دار المنار، ص 346.

[2] حسن إبراهيم حسن/ المرجع السابق، ص 157.

[3] أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري/ السيرة النبوية، مرجع سبق ذكره، ص 267.

[4] نفس المرجع السابق ص 267.

5 سورة الشورى، الآية 38.

[6] ظافر القاسمي / نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي، الحياة الدستورية، دار كتاب النفائس. بيروت1984، ص49 .

[7] هشام نشابي (تر) أحمد محمد تعلب/ المؤسسات التعليمية من كتاب المدينة الإسلامية تحت إشراف سرجنت ، اليونيسكو 1983، ص 71.

[8] ظافر القاسمي ، مرجع سبق ذكره، ص 48.

[9] مرجع سبق ذكره، ص48.

[10] شايف عكاشة/ الحضارة العربية الإسلامية بين التطور والتخلف، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية. 1994، ص93 .

[11]عبد الغني بسيوني عبد الله / نظرية الدولة في الإسلام بحث مقارن في الدعائم الرئيسية للدولة الإسلامية والأسس لدستورية والقانونية التي تقوم عليها، بيروت، الدار الجامعية 1986، ص.116

[12] نفس المرجع السابق، ص116.

[13] نفس المرجع السابق، ص117.

14 ظافر القاسمي، مرجع سبق ذكره، ص 91-.92

[15]الإمام النووي / الاربعون النووية في الأحاديث الصحيحة النبوية، القاهرة، دار الطباعة الأميرية.1321هـ، ص31.

[16] سورة المائدة ، الآية .48

[17] سورة النساء، الآيبة 56.

[18]عبد الغني بسيوني عبد الله / نظرية الدولة في الإسلام.. مرجع سبق ذكره ص272.

19نفس المرجع السابق، ص.272

[20] محمد أمزيان/ التوفيق بين الموروث والحضاري والتطلعات المستقبلية، منشورات أكاديمية المملكة المغربية، ندوة تيطوان، 1996، ص 46.